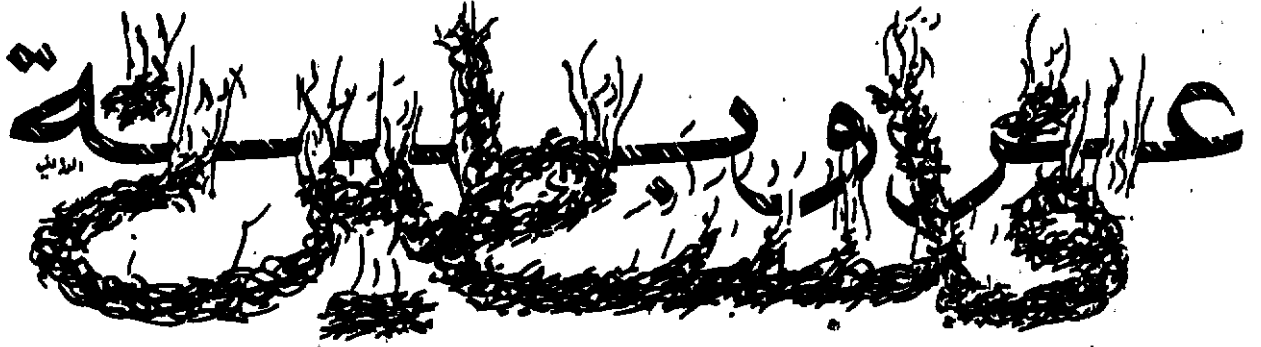




الدكتور أسعد حمود "دمشق"

وكان القادة الصهاينة والقيمين من انه لن يصدر من العرب والمسلمين رد فعل جدي، لاحتراق المسجد الأقصى، وأن الرد لن يكون أكثر من احتجاجات وصيحات لن تلبث أن تهدأ، ولن يكون لها على الصهاينة اثر ولا ضرر.

وكان موشي ديان هو القائد الصهيوني الذي دأبت الاحلام الخادمة أجفانه، بل يقترب اسمه في التاريخ بتحقيق دولة (إسرائيل الكبرى)، والقضاء على كل اثر للعرب والاسلام فيها. وأن نصر حزيران الرخيص الذي حققته قيادته على العرب، قد فاق جميع تقديراته وآماله، فظن أن ما حلت إسرائيل بتحقيقه، على مدى أجيال وقرون، أصبح، بعد نصر حزيران، أمرا سهلا المنال قريب التحقيق، فطمع بأن يكون هو ذلك البطل المحقق لاحلام قومه.

واندفع ديان ومصابته في مفارقاتهم، وجرائمهم، التي بلغت ذروتها في احراق المسجد الأقصى، ليعجزوا هود العرب والمسلمين، وليجربوا رد فعلهم، حتى اذا وجدوه هزيبا ضعيفا، عادوا الكرة لاحتراقه بشكل تام ونهائى.

وفي الواقع كان رد فعل العرب والمسلمين ضعيفا، لا يتناسب وقدسية المكان الذي أشعل الصهاينة فيه النار ودنسوه. ولكن يجب أن نعترف للامانة والحقيقة، بأن العرب انفسهم - اصحاب المصلحة المباشرة في أرض فلسطين، وفي الحفاظ على قدسية المسجد الأقصى - لم يحسنوا الافادة من هذه المناسبة، ولم يحسنوا

ابطر الصهيونيون فشل العرب عام 1948، في القضاء على احلامهم في اقامة دولة لهم في قلب العالم العربي، في البقعة المقدسة فلسطين، وراى في جرائمهم نجاح هذوانهم على مصر عام 1956، اذ اشتركت معهم في المعركة دولتان كبيرتان هما انكثرا وفرنسا، بينما ترك العرب مصر لمصيرها، تواجه العدوان لوحدها.

وبلغت النشوة والخيلاء بالصهيونيين حد الجنون اثر ظفرهم، غدرا وغيلة، بالعرب في معركة حزيران 1967 فاستخفوا بالعرب وقدراتهم على الحفاظ على ما تحت ايديهم من أرض وراث، فانطلقت من افواه المسؤولين الصهاينة اصوات وصيحات، تفصح بوضوح ودون تورية او تمويه، المخطط الصهيوني البعيد المدى، من ضم والحاق وتوسيع على حساب الارض العربية. ولم يستبعدوا التفكير في الاعتداء على الاماكن المقدسة الاسلامية في الحجاز.

اما القدس فقد اعتبر الصهاينة امرها منتها، فامروا باحراق المسجد الأقصى، الذي يمثل احد المقدسات الكبرى للعالم الاسلامي، غير مقيمين وزنا لرد فعل العرب، ولا لغضب المسلمين المنتشرين في اسقاع الارض. اذ كانوا يريدون أن ينتهوا، وبأسرع ما يمكن، من القضاء على كل ما يربط العرب والمسلمين بالقدس، والارض المقدسة فلسطين، ليسهل عليهم امر ترحيل من تبقى من العرب في القدس والمدن الفلسطينية الاخرى، الى البلاد العربية.

ولا شك في أن السعي الجدي لتحقيق التنسيق والتقارب بين مصر وليبيا والسودان ، ستنلوه خطوات أخرى نحو الوحدة بين الاقطار الثلاثة ، تجعل تلك المنطقة المتلاصقة ، التي تضم قرابة خمسة ملايين كيلومتر مربع من الأرض وخمسين مليوناً من البشر ، كتلة واحدة في المعركة ، ونواة تستقطب الاقطار العربية الواحدة بعد الأخرى ، لتجتمع شملها من جديد .

واننا لا نشك في أن التصريحات الوقحة التي صدرت وتصدر كل يوم ، عن قادة المنصرين في إسرائيل ، والتي تكشف عن نواياهم وأهدافهم ، وإطماعهم التوسعية ، وأن تدبيرهم للمقدسات الإسلامية والمسيحية في القدس والخليل وبيت لحم والناصرة ، واعتداءاتهم المتكررة على الوطن العربي ، ستكون بدء النهاية بالنسبة لهذا الجسم الغريب الذي أريد زرعه في جسم الأمة العربية ، ويوم ينهار هذا الكيان القائم خلافاً لمنطق التاريخ ، ولعقلية العصر ، سينال القادة الفاعلون جزءاً وافقاً على ما اقترعوه بحق الإنسانية والمقدسات من جرائم .

وليس زعماء إسرائيل هم أول من طرا على هذا الأرض وحاول تدنيس مقدساتها ، والإساءة إلى شعوبها ، وليس موسى ديان وعصاته هم أول الفاعلين الذين اغرامهم التفرق ، والنزعات العارضة بين شعوب العالمين الإسلامي والعربي ، بالاستطالة على العرب والمسلمين وعلى مقدساتهم ، وبالسخرية من قدراتهم ، وإمكاناتهم في رد الأذى والحق الهزيمة بالمتدينين . فبعد قرابة ثمانمائة عام حل في جنوبي البحر الميت ، مفامر صليبي غادر ، غرته انتصارات عارضة ، حققها الصليبيون على المسلمين في المنطقة ، فظن أن بإمكانه تدنيس المقدسات الإسلامية في مكة والمدينة ، كما دنس من سبقوه المقدسات الإسلامية في القدس والخليل ، واتخذوا من المسجد الأقصى ومسجد الصخرة مربطاً للخيول ومهجماً للجنود .

وكان من نتيجة ذلك أن فتحت جرائم ذلك الفاعل عيون العرب والمسلمين على حقيقة الخطر المحدق بهم وبمقدساتهم في المنطقة كلها ، وأدركوا أنه ما دام هناك مستقر لجسم غريب في أرضهم ، فلا أمن ولا سلام ولا أطمئنان ، فتحركت أوتال تتلو أرتالا من المجاهدين ، من كل أرض من أراضي الإسلام ، مليئة بدعوة الجهاد ، تقاتل وتحارب ، حتى كانت معركة حطين ، التي دفع ذلك الفاعل قومه إلى خوضها وهم

عرض قضيتهم ، ولم يعرفوا ما يريدون بالضبط من وراء دعوة أقطاب المسلمين إلى مؤتمر الرباط . وفي اعتقادنا أنهم لو اتبعوا صيحة الجهاد التي أطلقوها ، بتنظيم جدي لايفاد متطوعة ومحاربين من العالم الإسلامي ، لراينا اليوم زحواً تتلوها زحوف من الأبطال المستميتين ، يتدفقون على ميدان المعركة ، من كل أرض انطلقت من مآذنها صيحة (الله أكبر) ، ملين دامي الجهاد المقدس ، ليقضوا على العدو الذي دنس مقدساتهم ، أو لينالوا اجر الشهداء على الأرض المقدسة في المعركة المقدسة .

إن الصهيونيين يستمدون على العرب كل من يستطيعون ، باسم الدين ، وباسم القومية ، وباسم المصالح الاقتصادية والسياسية . الخ ، لا يفرطون في عون يائهم وإن صفر . ونحن نستبعد عونا كبيراً ، بل معينا من العون لا ينضب ، كان يمكن أن يكون في كفتنا ، وكان يمكن أن يؤثر تأثيراً فعلياً وحقيقياً على أولئك الذين يدعمون إسرائيل ، ويمكنون لها ، لو أننا أحسننا التصرف ، وعرفنا ما نريد ، إلا وهو عون العالم الإسلامي ، ذي المصلحة الحقيقية في أن لا يكون في المنطقة خطر يهدد مقدسات الإسلام في فلسطين والحجاز .

وعلى كل حال فقد كان لاحتراق المسجد الأقصى ، ولتصريحات زعماء إسرائيل وتهديداتهم فائدة إذ فتحت عيون العرب على حقيقة ما يراد بهم ، وعرفتهم بحقيقة وضعهم ، الذي يغري الإعداء بهم . فادركوا أنه ما لم يتم تصالحاً حقيقياً بين الدول العربية ، بانتظار قيام وحدة بين أقطارهم ، تستطيع إقامة دولة مصرية وجيش مدرب قادر على استيعاب العلم الحديث والسلاح الحديث - فإنهم لن يستطيعوا رد الطامعين بهم ، وستبقى حفنة من الفاعلين ، تستخف بهم ، وتستعزى بهم وتحتداهم في كل يوم وفي كل ساعة ، وتضربهم في مقر دارهم كلما شاء لها هواها أن تلهو بذلك .

وقد كانت أول بادرة للتضامن تصدر عن العرب ، وتشمر برفض هذا الواقع المؤلم ، هي الإجماع في مؤتمر الخرطوم ، الذي عقد اثر النكسة ، على دعم الإمكانيات المادية والعسكرية لدول المواجهة مع العدو ، وعلى رفض التفاوض مع العدو ، وعلى رفض الصلح معه . وتلك تلك ثورتان في ليبيا والسودان ، كان من شأنهما وضع إمكانيات القطرين الشقيقين في الميزان العربي الفعلي في المعركة المضنية .

لها كارهون ، فوقع في يد صلاح الدين اسيرا ، فلم يعف عنه ، لانه اعتبره مجرما ، وقاطع طريق ، ولم يعتبره محاربا يحترم قوانين الحرب .

ومنذ ذلك اليوم ادرك الصليبيون ان دولتهم قد اصبحت في حكم المقضي عليها بالزوال ، وتابى من خلفوا صلاح الدين المهمة التي بداها ذلك البطل ، حتى قذفوا بآخر الصليبيين في البحر ، بعد مائة وثمانين سنة من الحروب المتواصلة من يوم حطين .

وها نحن نسوق قصة ذلك المغامر الصليبي (ارناط) او (رينودوشا تيون) لعلها ان يكون فيها عظة للعرب ، وهبرة للمغامرين .

— ارناط —

تدفقت سيول الصليبيين على المشرق عام 1097 م (490 هـ) تريد - استجابة لنداء الكنيسة - استرجاع القدس من ايدي المسلمين ؛ ووجد الامراء المغامرون في اوربوا الفرصة سانحة ، فتنبوا المشروع لعلهم يفوزون بامارات واقطاعات في الشرق ، مستغلين حماسة البسطاء والسذج ممن دفعتهم الحماسة الدينية لتحقيق رغبات الكنيسة . وكان من بين اولئك الامراء المغامرين ، امير نورمندي الاصل استقر اباؤه في جنوبي ايطاليا وجزيرة صقلية ، وكان من نصيبه في الميراث ارضا صغيرة في جنوبي ايطاليا لا ترضي اطماعه الواسعة ، فأسرع بوهمند اوييمند كما تسميه الرواية على راس من تجمع تحت لوائه ، ينضم الى الجيوش الصليبية في الجانب الشرقي من مضيق البوسفور .

وبعد حروب واهوال وفظائع ومذابح ، تمكن ثلاثة ارباع المليون من الصليبيين من شق طريقهم الى سوريا ، وكان اول ما احتلوه فيها ، مدينة انطاكية ، التي دافع عنها حماة المسلمون اشرف دفاع واشجعه طوال عشرة اشهر . ولولا الخيانة التي اقرت احد القادة الداخليين حديثا في الاسلام ، لما تمكن الفرنج من احتلالها ، ولتبدل سير التاريخ كله في المنطقة .

وطمع بوهمند في ان يقيم لنفسه امارا في انطاكية وخاف رفاقه ، القادة الآخرون ، ان تفسد اطماع بوهمند خططهم الرامية الى التعاون مع الامبراطور البيزنطي ، اسحق كومنين ، وضرب المسلمين نقوة صليبية بيزنطية موحدة . وكان الامبراطور قد اخذ

المهود والموائيق على القادة الصليبيين بان يعيدوا اليه ما يحتلونهم مما كان تابعا في الماضي للامبراطورية البيزنطية ، وخصوصا انطاكية .

ولكن بوهمند لم يكن يفكر في غير مصالحه الخاصة ، فرفض الاستماع الى النصائح والاعتراضات ، وتمكن بحيله ومدبرائه ، من الفوز بامارة انطاكية ، رغم معارضة بعض زملائه .

وسار الامراء الصليبيون الآخرون جنوبا ، واقام كل منهم امارا لنفسه ، فكانت هناك مملكة في القدس ، وامارة في طرابلس ، وامارة في الرها (اورفه) .

واصبح بوهمند بلاء على المسلمين من جيرانه ، وكان اكثر ضغطه منصبا على حلب المجاورة لانطاكية ، ثم اسر بوهمند من قبل الغازي ابن الدانشمند ، امير التركمان في الاناضول ، ولكن لم يلبث ان فاضله واطلق سراحه لقاء فدية كبيرة ، فعاد بوهمند يتابع اعتدائه نحو من حوله من المسلمين والبيزنطيين .

ونقم البيزنطيون على بوهمند حنثه بيمينه ، واتكاهه لحقهم في السيادة على انطاكية ، فافتنموا فرصة هزيمة الفرنج - وفيهم بوهمند - في معركة حران عام 1104 م ، واسرموا يحثون الخطا نحو كيليكيا واللاذقية التابعتين لامارة بوهمند . فخارت قوى بوهمند وشعر بالخطر الشديد المحدق به . فمهد بالامارة الى ابن اخته تانكريد ، وذهب الى اوربوا ، ليستشير حملة صليبية اخرى ، هدفها انقاذ انطاكية من خطر المسلمين والبيزنطيين . ولكن بوهمند ذهب ولم يعد ، وتزوج هناك من اميرة فرنسية رزق منها بولد يعرفه التاريخ باسم بوهمند الثاني .

وفي الفترة بين ذهاب بوهمند الاول الى اوربوا ، ووصول بوهمند الثاني الى الشرق ، تعاقب على انطاكية اميران نورمنديان ، أحدهما يدعى تانكريد ، والآخر روجيه ، وقد قضى المسلمون على روجيه وعلى جيشه في معركة البلاط على الطريق بين حلب وانطاكية .

وفي عام 1128 م ، وصل الى انطاكية بوهمند الثاني ، وهو شاب فارغ الطول ، قوي البنية ، جميل الملامح ، قد بلغ الثامنة عشرة من عمره ، واتقن استعمال السلاح ، حتى بد اقرانه به . وما هو الا ان تسلم امارا انطاكية حتى تزوج باليس ابنة الثانية لملك القدس بودوان الثاني ، وباشسر الاشارة على جبراته المسلمين ، ومباغتة الحصون القريبة من

أراضيه ، فحقق بعض النجاح ، وقد زاد ذلك النجاح المحدود في صلفه وفروره .

وفي يوم من أيام شهر شباط (فبراير) 1131 ، اتجه بوهمند من أنطاكية إلى كيليكيا ، على رأس قوة من فرسانه ، يريد أن يلحق به الإمارة الأرمنية ، بعد أن توفي صاحبها وابنه ، فانقض عليهم جيش من التركمان بقيادة الغازي بن الدانشمند (أسر بوهمند الأول عام 1101 م) ، وأحاط بهم إحاطة تامة ، وأنهال عليهم رميا بالنبال ، فخرجوا على الأرض صرعى ، وكانهم أعجاز نخل منقعر ، وفيهم بوهمند نفسه .

ولم يترك بوهمند من الأولاد غير بنت صغيرة لا يتجاوز عمرها السنتين ، اسمها (كونستانس) فتسلمت أمها الأميرة (اليس) إدارة الإمارة ، تحت وصاية ملك القدس .

ومرت الأيام ثقلا على الأميرة الشابة في إدارة إمارة واسعة ، يطمع بها جيرانها البيزنطيون من الشمال ، والمسلمون من الشرق . وكان خطر المسلمين قد أصبح مقلقا فعلا ، إذ تسلم أمارتي الموصل وحلب أمير شهم ، بعيد الهمة ، قوي المزيمة ، هو عماد الدين زنكي ، وقرر أن يخوض بالمسلمين حربا ضروسا مع الفرنج ، ليزيل ما تجمع في نفس المسلمين من هيبة للفرنج في ميدان الحرب . فسار بجيشه إلى حصن قريب من حلب ، هو حصن الأتارب ، الذي طالما ارمب فرسانه أهل حلب ، وخربوا زروعهم ، ونهبوا أموالهم .

وتجمع الفرنج للدفاع عن الحصن ، وسال زنكي رجاله ماذا يرتأون . فأشار عليه بعضهم بالانسحاب من الأرض التي يحتلها العدو ، والعودة إلى حلب ، وأشار عليه آخرون بالتراجع إلى أراضي حلب ، فإذا لحق بهم الفرنج ، أمكنهم أنشاب المعركة في أرض إسلامية .

وكان زنكي قد قرر في نفسه خوض المعركة مهما كانت النتائج ، فقال لرجاله ، أن الفرنج قد استطالوا على المسلمين كثيرا ، وقد أصبح مألوسا لديهم أن يروا تراجع المسلمين وأحجامهم من القتال كلما راوا تجمع الفرنج ، ولذلك فإنه يرى أن يليق المسلمون بأسهم للفرنج ، ليذكروا ذلك في المستقبل ويقدروه . وأنه يرى أن أي تراجع أمام الفرنج سيجرئهم ، ويضعف من هزيمة المقاتلين المسلمين . وخلص من ذلك إلى القول بأنه يرى أن يقدم المسلمون

للقاء العدو مصممين على النصر ، وما النصر إلا من عند الله .

وتقدم المسلمون ، وقضوا على الجيش الصليبي واكثروا فيه القتل ، حتى ذكر ابن الأثير ، أنه مر في أرض المعركة ليلا ، بعد أكثر من سبعمين عاما ، فقليل له أن عظام القتلى الفرنج ما زالت منتشرة في تلك الأرض . وعاد المسلمون إلى حصن الأتارب فتسلموه من الفرنج ، فأخربوه حتى سووا بنياءه بالتراب ، لكيلا يتركوا الرا يرمز إلى الرهبة في قلوب أهل حلب ، ومن حولهم من المسلمين .

وخافت الأميرة الشابة على ملكها ، فأخذت ترسل زكريا سرا ، وتضع نفسها تحت حمايته ، فأساء ذلك الفرنج الذين تسربت إليهم أنباء اتصالاتها بالمسلمين . وأخذ الجميع يفكرون في وسيلة يتمكنون بها من إبعاد الأميرة (اليس) عن حكم أنطاكية ، وقد وجدوا أن خير الوسائل لذلك هي البحث عن زوج للأميرة الطفلة الوارثة (كونستانس) .

ووجدوا لها أخيرا شابا جميلا من نبله فرنسا ، هو الكونت (ريمون دويواتيه) فقدم إلى أنطاكية على أنه سيكون زوجا للأميرة (اليس) ، لكي يأمنا معا رضتها في دخول ريمون إلى أنطاكية .

ولم يمض وقت طويل حتى فوجئت الأميرة بمقد قران ريمون على ابنتها كونستانس ، فانسحبت إلى اللادقية .

تسلم ريمون دويواتيه إدارة أنطاكية ، نيابة عن زوجته ، وكان فارسا نجدا ، ولكن خصائصه ومميزاته ضاعت أمام هتكة عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود ، الذي خلف أباه في حكم حلب ، في عام 1146م فانتزعا من الفرنج جميع ما كانوا يحتلونه شرقي العاصي ، كما انتزعا منهم جميع إمارة الرها .

وفي 29 حزيران (يونيو) 1149 م ، غفر نور الدين محمود بجيش أنطاكية ، عند قرية (أتب) (القريبة من جسر الشغور) وإبادته تقريبا ، وكان ريمون بين القتلى . فأصبحت كونستانس وصية على ابنتها بوهمند .

وقد شعرت الأميرة ، لأول مرة ، بمد موت زوجها بلذة الحكم . وسر البطريق لشموورها هذا ، فأخذ يشجعها على عدم الزواج مرة أخرى ، لكيلا

يأتي امير جديد يقضي عليه بالاقْتصار على عمله الديني وحسب .

وحاول ملك القدس - وهو ابن خالة كونستانس - أن يجد لها زوجا يحرره من مسؤولية الاشراف على انطاكية ، ويستطيع النهوض بأعباء الدفاع عنها في تلك الايام العصيبة من تاريخ امارات الفرنج في الشرق ، فلم تقبل الاميرة بزوج ، وآثرت الاستمرار في حياتها طليقة من قيود الزواج .

وسارت الامور سيرها العادي ، ونور الدين محمود يلح على ما يبذل الفرنج من مدن وحصون ، في كل يوم ، وقاوب الفرنج في انطاكية وفي غيرها ، ترتجف هلما ، كلما نظروا الى المستقبل المظلم .

لقاء الاميرة (باوناط)

وفي ذات يوم من اواخر عام 1152 ، لمحست الاميرة الشابة فارسا يدل زيه على انه حديث عهد بالوصول الى الشرق ، فاجبت به واستدتمته اليها ، وتعرفت عليه ، فزاد امجابهها به . ولم يكن ذلك الشاب غير المغامر رينو دوشانيون (او ارنات كما تسميه الرواية العربية) الذي سيجر الممالك الصليبية كلها الى الهاوية في معركة حطين ، وهو الذي سيرجده غدرة ومحاولاته العبث بالمقدسات الى الموت بيد الرجل الرحيم صلاح الدين الايوبي .

وتكررت مقابلات الاميرة والفارس الفتى ، حتى اغرمت به وانفقت معه على الزواج ، ووجد المغامر الجريء في هذا الغرام فرصة تحقق له اكثر مما كان يطمح به ويحلم ، فلم يشأ ان يضيعها . وكان لا بد - بحسب التقاليد ايام النظام الاقطاعي - من الحصول على موافقة ملك القدس ، بودوان الثالث على الزواج ، بصفته الوصي الشرعي على الاميرة وعلى الامارة ، وكان بودوان اذ ذاك منهمكا في حصار ميناء مستقلان في جنوبي فلسطين ، - ومستقلان هي آخر ما تبقى بيد الفاطميين من ملك في فلسطين - فطار اليه الفارس المغامر ، يرجوه الموافقة على الزواج .

وعجب الملك من غرابة اطوار ابنة خالته ، كيف تقبل الزواج من شاب مغمور ، لا ثروة له ولا جاه ، بينما سبق لها ان رفضت الزواج بخيرة الامراء والنبلاء الذين عرضوا عليها في الماضي ؟ مع انه كان من الممكن ان يكون في ثراء هؤلاء النبلاء ، ونفوذ بيوتاتهم ، واتساع

املاكهم ، خير عون لامارة انطاكية ، وللممالك الصليبية في الشرق ، في حربهم الفروس المستمرة منذ خمسين سنة . ولكن الملك الذي يشس من موضوع زواج (كونستانس) ، اراد ان يتحرر من اعباء الدفاع عن انطاكية ، فوافق على الزواج ، بعد ان جثا (ارنات) على قدميه ضارعا متوسلا .

تم الزواج الاسطوري ، وتسلم ارنات حكم انطاكية فساسها بمقلية المفامر الفظ ، وكان اول ما استهل به عهده في الحكم ، هو الانتقام من بطريرك انطاكية (ايمري دو ليموج) .

لقد كان البطريك شيخا هرما يوم تم الزواج ، وكان يشارك الاميرة مشاركة فعلية في ادارة الامارة ، فاستمر الحكم والسلطة وسر بهما ايما سرور ، لذلك وجد من مصلحته ان تبقى الاميرة دون زوج ، تدبر الامارة ، ليكون هو الحاكم الفعلي ، والموجه الاول ، تصدر الامور في انطاكية عن رايه ونهيه .

ولما تم الزواج فوجيء البطريك به ، فامتعض وساءه ان يصبح تابعا لجندي مغمور ، ليس له من الميزات غير غرام الاميرة الطائش به ، فاطلق لسانه فيه ، واطهر له الاحتقار والازدراء ، وهو لا يعلم ان عدوه الجديد لا تقف قسوته عند حد .

قسوة ارنات وغدرة

وسرعان ما تطور الصراع بين الرجلين ، فامر ارنات بالقبض على البطريك ، وجلده في الساحة العامة حتى ادمى جلده ، ثم امر به فشد الى وتد ، وهو حاري الجسد ، تحت اشعة الشمس اللاهبة ، وطلعي جلده بالعسل ، لتتجمع عليه الحشرات والهوام ، تلسعه وتشرب من دمه .

وقد استاء الناس في انطاكية من هذه الوحشية ، التي يعامل بها اميرهم الجديد رجلا هرما له مكانته الدينية في نفوس الناس ، وله فضله في الدفاع عن انطاكية ، في ايام الشدة ، بعد مصرع ريمون دو بواتيه ووصلت انباء هذه المعاملة الفظة الى ملك القدس ، فاولفد على جناح السرعة رسولا ، يستنكر عمل رينو ويستغظه ، ويأمره باطلاق سراح البطريك ، ففعل . ثم بدا لارنات ان يتفاهم مع الامبراطورية البيزنطية لمحاربة امراء الارمن في كيليكيا ، لعله يفوز بشيء من اراضيهم ، ولكنه سرعان ما انقلب على البيزنطيين ،

وشرع المحاصرون فى نصب آلاتهم ، وقذف الاسوار بالجنايق ، وبعد مدة قصيرة من الحصار ، اقتحم الفرنج اسوار البلد واحتلوها ، فلجأ المدافعون عنها الى القلعة وتابعوا دفاعهم .

وعرف ارنات بما ينتويه بودوان من تسليم شيزر وما حولها للكونت دوفلاندر ، فاستاء من ذلك واعترض على هذه الفكرة ، مدعيا ان شيزر وما حولها تدخل فى نطاق المجال الحيوي لانطاكية وان على تيرى ، اذا تسلم اماره شيزر واواسط العاصي ، ان يكون تابعا له حسب التسلسل الاقطاعي . واستاء تيرى بدوره من هذه الفكرة ، فانه لم يكن يخطر له على بال ، وهو المتحدر من امرق البيوتات واکرمها ، ان يدين بالولاء والطاعة لمغامر افاق حمله الحظ الى كرسي الامارة ، واعلم رفضه لما اقترحه ارنات . واشتد الخلاف فى المسكر الصليبي حتى كاد يؤدي الى ما لا تحمد عقباه ، فلم يجد بودوان بدا من رفع الحصار والانسحاب من شيزر لكيلا يكون احتلالها سببا فى نشوب حرب اهلية بين الصليبيين .

خسوع الجبناء

استاء الامبراطور مانويل كومنين ، اشد الاستياء من هجوم ارنات وزميله الارمني على قبرص ، ومن الفظائع التي ارتكبتها ، ولكن ظروف الامبراطورية ، وما كانت تواجهه من مشاكل فى اوروبا ، لم تكن تسمح له اذ ذاك بالتفكير فى معاقبة المجرمين .

ولكن بعد ان تحرر الامبراطور من الكثير من مشاغفه ، تحرك فى عام 1158 م ، على راس جيش كبير الى كيليكيا ، فسحق امارات الارمن فيها ، واستولى على امهات المدن ، واقام معسكره قرب المصيصة بانتظار تحركه لمعاقبة ارنات .

وعلم هذا بما ينتويه الامبراطور ، فجزع جزع الجبناء المجرمين ، وخارت قواه ، وشل تفكيره ، ولم يعد يعرف ما يصنع ، بعد ان أدرك ان جرائمه قد اسلمته لمصيره ، وانه لن يجد بسببها ، معينا له فى محنته . وبينما كانت هواجس ارنات تعذبه وتقص مضجعه ، لا حت لاحد المقربين منه فكرة ، وجد فيها الفرج والخلاص ، وهي : لماذا لا يخرج ارنات الى معسكر الامبراطور تابعا معتذرا ، ويضع نفسه تحت رحمته وتصرفه ، ويعلم له الاعتراف بطاعته والتبعية له . ؟ فقد سبق لوالد الامبراطور ان عفى عن ريمون

وتفاهم مع الارمن على محاربتهم ، واعمد ارنات وطوروس امير الارمن حملة مشتركة على جزيرة قبرص - وكانت مقاطعة بيزنطية - فلم يشعر اهل الجزيرة الا والقوات الصليبية والارمنية تهبط فى اراضيهم وتنكل بهم .

وقد ارتكبت القوات الغازية من الفظائع والقبائح ما تقشعر لهوله الابدان ، فصلمت آذانا ، وجدعت انوفا ، وهتكت اعراضا ، ونهبت اموالا لا يحصىها عد . وعاد المغامر ايديهما مثقلة بالتسبي والفنائم .

طمع ارنات وانانيته افشلا مخطط الصليبيين لاحتلال شيزر

كانت شيزر قلعة حصينة تقوم على الضفة اليسرى للعاصي ، وقد اعجز الصليبيين احتلالها ، بفضل دفاع امرائها ، آل منقلد وبفضل موقعها الجغرافي ، ومثانة اسوارها . وفى عام 1157 م ، ضربت هزة ارضية مدن سوريا فاخربت اكثرها ، وكان الخراب الذى اصاب شيزر كبيرا ، وكال آل منقلد قد تجمعوا فى قصرهم لحضور حفل فيه ، فانهار عليهم القصر ، ولم ينج منهم غير اسامة الذى كان منفيا خارج شيزر ، وغير امرأة وطفل منهم ، اخرجوا من تحت الانقاض .

وفى ذلك العام ، واثر الهوة التي الحقت بالمدن السورية ، وقع امير سوريا وبطلها نور الدين محمود مريضا ، حتى اشفى على الموت ، فبدا للصليبيين ان يفتنموا الفرصة ، ليحتلوا شيزر ، ويثبتوا اقدامهم فى حوض العاصي من جديد .

وبدا للملك بودوان الثالث ان يحتل ما يمكن احتلاله من اواسط حوض العاصي ليسلمه الى الكونت (تيرى دوفلاندر) يقيم له اماره فيه ، تفيد من الامكانات الضخمة التي يتمتع بها بيت الكونت وامارته فى فرنسا ، وبذلك يستطيع تخفيف العبء الثقيل الذى اصبحت تنوء به الامارات القائمة فى الشمال ، بعد القضاء على اماره الرها .

وفى اوائل تشرين الاول (اكتوبر) من عام 1157 م تجمع حول شيزر جميع الامراء الصليبيين ، مع جيش ارمني يدمهم ويعمل معهم ، وانضم اليهم الكونت تيرى دوفلاندر ، ومن معه من الفرسان القادمين للحج والنجدة .

دوبوايه ، واكتفى بالاعتراف بالتبعية والولاء ، ورفع علم الامبراطورية على قلعة انطاكية .

وبدت الفكرة لارناط اخاذة . فانه اذا استطاع ان يدفع العقاب من نفسه ، وان يؤجل احتلال انطاكية ولو الى حين ، يكون قد حقق كسبا لا يستهان به . فقرر السير بنفسه الى المعسكر الامبراطوري ، وارسل قبله رسولا من رجال الدين ، يمهّد السبيل ، ويلطف الجو . وتمكن الرسول ، بحذقه ودهاله وجميل اعتداده من تهدئة ثائرة الامبراطور ، ومن تخفيف ثقله على ارناط .

ووصل ارناط الى المصيصة ، وكان عليه ان يجتاز المدينة كلها ، ليصل الى المعسكر الامبراطوري ، فترجل من فرسه ، وخلع نعليه ، ولبس قميصا يكشف من ذراعيه حتى المرفقين ، وامسك بسيفه من مقدمة النصل ، ليقدّم قبضته الى الامبراطور ، وسار وهو على هذه الحالة المزرية ، من الذل والاستخذاء في شوارع المصيصة ، التي اصطف الناس فيها على جانبي الطريق ، ليتفرجوا على هذا الجبان الدليل الغادر المتقلب .

ورضى الامبراطور ، ماتم من خضوع ارناط ، واكتفى بالاعتراف بتبعية الامارة له والسماح له باقامة حامية بيزنطية في قلعة انطاكية ، كرمز لاثبات حقه .

أسر المغامر

وبعد ان رحل الامبراطور عن كيليكيا ، تنفس ارناط الصعداء ، ونسى ما لقيه من ذل ومهانة ، وعاد يتابع حياته المعتادة ، حياة المغامر الشرير . وفي يوم من ايام شهر تشرين الثاني (نوفمبر) 1160 م ، علم ارناط ان قطعانا كبيرة من الماشية ترمى في السهول الواقعة بين عينتاب ومرعش ، وان هذه القطعان لا تحرسها قوات اسلامية ، وكانت القطعان في اكثريتها يملكها ارمن ويونانيون من سكان المناطق التي استرجعها المسلمون من الفرنج حديثا ، ولكن ارناط لم يكن يهمه من يملك القطعان ، وانما الذي يهمه ان يحقق مفعما ، دون ان يتعرض لخطر قتال .

وبينما كان الرعاة آمنين مطمئنين ، انقض عليهم ارناط وفرسانه ، فاسروهم ، واستاقوا قطعانهم فرحين بما حققوه من كسب . ولكن فرحتهم لم تطل كثيرا ، اذ ان انباء الهجوم الغادر ، وصلت الى نائب

نور الدين في حلب ، مجد الدين ابي بكر بن الدايدة ، فاستنفر قواته ، وطار بها ليقطع الطريق على المغامرين .

وعلم ارناط وصحبه بخروج المسلمين اليهم ، فخاف اصحابه ، ونصحوه بان يتخلى عن المنضم الضخم ، وان ينسحب عائدا الى انطاكية . ولكن ارناط اراد ان يتظاهر بالجرأة الكاذبة امام صحبه ، فرفض الفكرة ، وامر فرسانه بسوق القطعان ، بين صفين من الجند ، وان يحثوا الخطا الى انطاكية ، وسار هو مع قوة من رجاله في الساقة ليحميها ويدافع عنها .

وبينما كان ارناط وصحبه يسرون مسرعين قرب قرية الجومه ، شمالي غربي هزائر ، انقض عليهم فرسان حلب ، وفتكوا فيهم فتكا ذريعا ، وقتلوا اكثرهم ، وجبن الاخرون فاستسلموا ، وكان بين المسلمين ارناط . ونجا قليلون هاربين ، يخبرون فرنج انطاكية بانباء المعركة ومصير ارناط .

والقى ابو بكر بارناط وصحبه على ظهور الجمال ، وكانهم بعض المتاع ، ودخلوا بهم حلب ، فاسرع الناس يتفرجون على هذا المشهد الذي لم يعد يثير فضولهم كثيرا ، لكثرة ما تكرر منذ ان تولى عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود امور حلب . ووصلت الجمال باحمالها امام قلعة حلب التاريخية ، فانزلت الاحمال ، واستيق ارناط الى سجنها ليقضي فيه ستة عشر عاما من حياته الشقية .

وبعد ان توفي نور الدين محمود ، موحد سوريا ومصر ، كان ابنه الملك الصالح ، صغيرا ، فاختلف الامراء من حوله ، ايهم يكفله ، ليبسط سلطانه على الدولة . وتحرك صلاح الدين نائب نور الدين في مصر ، يريد اثبات حقه في تولي رعاية ابن سيده . وجرت بينه وبين امراء سوريا المشرفين على الملك الصالح ، حروب ووقائع ، انتصر فيها صلاح الدين ، ووصل في زحفه المظفر الى حلب ، لحاصرها .

ولم يجد من يحلب من الامراء وسيلة لدفع صلاح الدين عنهم ، غير الاتصال بالفرنج ، فتحرك ريمون الثالث ، امير طرابلس ليهاجم حمص ، كما تحرك فرنج انطاكية . وليثبت امراء حلب للفرنج حسن نواياهم ، واخلاصهم في التعاون معهم ، اطلقوا في عام 1176 م سراخ من كانوا في سجن حلب من الفرنج ، ومنهم ارناط .

وكانت امانة انطاكية قد تولاهما وارثها الشرعي ، بوهمند الثالث ، فلم يجد المغامر مكانا له في انطاكية ،

وتابع سيره الى القدس . وهناك تعرف بأرملة اخرى هي (اتين دوميلتي) ، أرملة (أونفروادو تورون) (ابن الهنغري كما تسميه الرواية العربية) . وكانت هذه الأرملة قد ورثت إمارة شرقي الاردن ، التي يقوم فيها حصن الكرك والشوبك ، فأعجبت هي به ، وأعجب هو بمالها وأملاتها ، التي تحتل أفضل مركز جغرافي ، يسيطر على طريق القوافل ، المتنقلة بين سوريا ومصر والحجاز ، فعتدا زواجهما حوالي عام 1177 م .

لم تكن الظروف مواتية لآمال أرناط وأطماعه في المغامرة ، حينما كان زوجا لاميرة انطاكية . إذ كانت انطاكية محصورة بين مملكة نور الدين في الشرق ، وبين الامبراطورية البيزنطية في الشمال . وكانت انطاكية اقرب المواقع الصليبية الى حلب ، وحصونها الغربية ، فلم يكن في مقدور أرناط أن يندفع وراء مغامراته كما يحلو له ، دون أن يكون معرضا لخطر الانتفاض عليه من المواقع الإسلامية المحدقة بأرض انطاكية . وقد رأينا كيف أن فرسان حلب كانوا أسرع من أرناط ، فاعترضوا سبيل عودته بالفنالك إلى انطاكية وأسروه .

كما ان الانضباط الذي كان يفرضه ملوك القدس على الإمارات الصليبية الاخرى في المشرق ، كان سببا من اسباب كبح جماح المغامرين من الامراء ، والزعام بالمعقول من التصرفات .

ولكن ما لم يكن ممكنا القيام به من المغامرات في انطاكية عام 1160 م ، أصبح ممكنا كل الامكان القيام به في جنوبي شرقي الاردن عام 1180 م ، فالملك بودوان الرابع ، أصبح ملك القدس ، وكان مصابا بالجدام ، وحالته ميؤوس منها ، وقد ضعفت الملكية ، واصبحت موضع مساومة ومنازعات بين الطامعين في السيطرة على الملك .

وفي المملكة الإسلامية كانت الظروف قد تغيرت هي ايضا ، فقد مات الرجل العديدي الإرادة ، نور الدين محمود ، واصبحت خلافته موضع نزاع بين الطامعين في أن يخلفوه ، حتى تمكن صلاح الدين بعد كثير من الجهد من تثبيت أقدامه ، وفرض سلطانه على المنشقين عليه .

اما من الناحية الجغرافية فان موقع قلعتي الكرك والشوبك ، في قلب الصحراء بعيدا عن مواسم المسلمين ومراكز تجمع قواتهم ، يجعل المغامرات أكثر ربحا ، وأقل تعرضا للاخطار .

واذا فقد كان زواج أرناط من اميرة قلاع شرقي الاردن ، يحق جميع الشروط المناسبة والملائمة لانطلاق مغامراته من جديد .

واخذ أرناط يبت هبونه وارصاده من الصليبيين ومن بدو الصحراء ، ليرصدوا تحرك القوافل ، ويعلموه بها ليقوم بالاغارة عليها ونهبها وسبي من فيها ، دون أن يخشى مفاجأة من جيش اسلامي قريب .

وتكررت أعمال أرناط ، وعادت عليه الاعمال بالارباح الوفيرة ، فزاد ذلك في جرانه ، وفي أطماعه ، والمسلمون لا يستطيعون الوصول اليه ، كما لا يستطيعون أن يتخلوا عن سلوك طريق الصحراء ليصلوا من سوريا وما وراءها الى مصر والحجاز .

ثم جرت اتصالات بين ملك القدس وبين صلاح الدين ، لتحقيق هدنة ، تريح الجانبين من عناء الحروب المتواصلة ، وقد كانت الهدنة ضرورية لصلاح الدين ، ليتفرغ الى تسوية مشكلات مملكته ، واستكمال وحدتها وكانت الهدنة أكثر ضرورة للصليبيين ، الذين انهكتهم الحروب ، وقلصت رقعة أراضيهم ، وأخربت ما تبقى منها في أيديهم ، كما كانت ضرورة لهم لتسوية خلافاتهم الداخلية ، وخصوصا الخلافات بين أفراد البيوتات الحاكمة ومشاكلها العائلية ، والخلاف بين منظمي الداوية والاستبارية .

وحينما تحققت الهدنة كان من المفروض أن تشمل مملكة القدس ، باماراتها المختلفة ومنها إمارة شرقي الاردن التي يحكمها أرناط . واتصرف كل من الجانبين الى تسوية اموره مطمئنا الى قدسية المهود والمواثيق .

ولكن هذه الهدنة لم ترق لأرناط ، الذي اشتاد على تحقيق المكاسب والفائز من طريق العدوان على القوافل العابرة في الصحراء ، فأضمر في نفسه الغدر ، وعدم التقيد بها . واخذ يتحين الفرصة ، المناسبة للغدر ، فقد تكون الهدنة أكثر كسبا له . وبالفعل كانت .

ففي صيف عام 1181 م ، علم أرناط أن قافلة اسلامية كبيرة جدا ، قدرت الروايات ثمن ما فيها بمئتي ألف دينار تسلك الصحراء مطمئنة الى الهدنة ، في حراسة عدد قليل من الرجال ، فاستعد للاستيلاء عليها .

ولما أصبحت القافلة قريبة من قلعتيها ، نزل من فيها يستريحون من وعاء السفر ، وباتوا ليلتهم هناك ،

فلم يشعروا الا وارناط ورجاله ينقضون عليهم ، ويمعنون فيهم قتلا واسرا ، فنجنا منهم من سبق فرسه ، ووقعت القافلة في ايدي ارناط . ووصل الناجون من رجال القافلة الى دمشق يقصون على صلاح الدين اخبار الغدر الفرنجي ، فانزعج صلاح الدين وادرك ان وجود قلاع صليبية على الطريق بين شقي مملكته ، امر بالغ الخطورة ، وانه لا بد من القضاء عليها اذا اريد للمملكة ان تزدهر وتتماسك .

وانزعج الصليبيون في القدس كثيرا ، وخصوصا الملك بودوان الرابع ، الذي ألح عليه المرض وانكه ، فقد تعود اسلافه تشريف تمهيداتهم ، والحفاظ على مهورهم ، كما تعودوا ان يتقوا بهمود المسلمين وموايقتهم ، واسرع يكتب لارناط يلومه على هذا الغدر الذي يظهر الصليبيين بمظهر المغامرين الذين لا يتقيدون بمعهد ولا ميثاق . وطلب اليه ان يعيد ما وقع بايديه من المغانم الى المسلمين ، وان يطلق سراح الاسرى . فسخر ارناط من الملك ، وأعلن رفضه الاستجابة للطلب . فعاد الملك وأرسل اليه وفدا من رجال الدين ، ومن فرسان الاسبتارية ، يلحون عليه في ضرورة اعادة الاسرى والمغانم ، الى المسلمين ، للابقاء على الهدنة القائمة ، فلم يكن رد ارناط على الوفد بأفضل من رده الاول . وسخر من الملك ومن سلطانه عليه .

واراد صلاح الدين ان تستمر الهدنة قائمة ، فكتب الى بودوان يعرفه بالواقعة ، ويستنكر تصرف ارناط ، ويطلب اليه التدخل لاعادة الاسرى والاموال . فلم يجد بودوان ما يرد به على صلاح الدين غير الاعتذار بأنه لا يستطيع عمل شيء مع تابع لا يحترم عهدا ولا هدنة .

وحينما تلقى صلاح الدين هذا الرد ، اعتبر الهدنة غير قائمة ، وبأشهر الحروب من جديد .

وهكذا وجد الصليبيون انفسهم مسوقين برغمهم وراء المغامر ، لان غارات المسلمين لم تقتصر على ارض ارناط .

وفي عام 1182 م ، ذهب صلاح الدين لمصر ، لينتقد شؤونها ، ولما علم الفرنج بذلك ، عقدوا مجلسا حربيا بحضور بودوان ، لمناقشة الموقف . وقد ارتأى المغامرون من انصار ارناط ، ان صلاح الدين ، سيمود على رأس قوات ، وانه سيهاجم معاقل ارناط في الكرك والشوبك ، لينتقم منه ، وان الحكمة

تقضي بان يتحرك الصليبيون لنجدة ارناط ، ولاعتراض سبيل صلاح الدين أثناء عودته من مصر الى دمشق .

ولكن العقلاء ، وعلى رأسهم ريموند الثالث أمير طرابلس ، الذي كانت تربطه بالمسلمين هدنة ، لم يروا هذا الرأي ، وقدروا ان احتشاد الجيش الصليبي في جنوبي الاردن ، امر بالغ الخطورة ، لانه يترك الاراضي الصليبية في فلسطين ، خالية من القوات ، فتتعرض بذلك لهجمات المسلمين المباغتة .

وفازت نظرية المغامرين ، اذ لم يكن بودوان في وضع يمكنه من اتخاذ موقف حازم . فعبا الصليبيون قواتهم ، وصاروا بها الى الكرك ، وعسكروا حولها ينتظرون عودة صلاح الدين ، ليوقعوا به . ولكن صلاح الدين علم بمخطط الفرنج ، فخرج على رأس فرسانه عبر الصحراء على خير تعبئة ، وجعل أخشاه نوري على رأس قوة تحرس القافلة العائدة بالمتاع والمرضى والنساء ، على ان يسيروا موغلين في الصحراء ، ليكونوا بميدان عن متناول يد الفرنج .

وفي نفس الوقت ، الذي قرر فيه صلاح الدين عبور الصحراء ، أوعز الى ابن أخيه فروخ شاه ، وهو نائبه في دمشق ، بان يفتنم فرصة خلو فلسطين من القوات ، ويضرب هناك بمنف . فخرج فروخ شاه من دمشق على رأس قوة خفيفة الحركة ، وأسرى الى منطقة الجليل ، فلم يشعر الفرنج ، الذين كانوا يعملون آمنين مطمئنين ، الا والجيش الاسلامي ينقض عليهم ، يقتل ويأسر ويسبي ويفتنم ، ويخرب ، دون ان تكون للفرنج فرصة للالتجاء الى معقل او حصن . ثم عاد المسلمون الى منطقة السواد الواقعة شرقي بحيرة طبرية ، يوقعون بالفرنج ويفتكون بهم .

وتقول الروايات ان فروخ شاه ، عاد الى دمشق يسوق امامه قرابة الف أسير وعشرين ألف رأس من الماشية . وعلم الصليبيون وهم في معسكرهم قرب الكرك ، بما أحدثته غارة فروخ شاه من خراب ودمار ، في منطقتي الجليل والسواد ، فقلقوا وادركوا خطاهم بأبواب آراء ارناط وأصحابه ، فانسحبوا مسرعين الى منطقة الجليل ، وعسكروا قرب حيون صفورية ، بانتظار ما سيقوم به المسلمون .

أما صلاح الدين فانه وصل الى دمشق في 22 حزيران (يونيو) 1182 م ، وبعد ان اطمأن الى وصول أخيه نوري والقافلة سالمين الى دمشق ، عاد بقواته الى حدود مملكته مع فلسطين المحتلة ، وعسكر في

منطقة القحوة ، قرب سمخ ، قلم يجرؤ الصليبيون على دخول المعركة معه . لانهم كانوا يدركون حقيقة تفوقه عليهم بقواته وبموارده وبانضباط جيشه ، بينما كانت الفوضى والنزاعات الداخلية ، تنخر في جسم الكيان الدخيل .

وبث صلاح الدين سراياه في المنطقة تميت فيها
تحت سمع الجيش الصليبي وبصره ، دون أن يجرؤ على التعرض للمسلمين . وبلغت سرايا المسلمين بيسان وجنين تقتل وتخرب وتحرق ، لعلها تدفع الفرنج الى المعركة ، ولكن الصليبيين لبثوا ساكنين لا يتحركون . واخيرا اطم الجنود صلاح الدين ان ازوادهم قد نفذت وان مقامهم قد طال ، فقرر صلاح الدين الانسحاب الى دمشق ، بعد ان تاكد من ان الفرنج لن يجازفوا بدخول الحرب .

اغرت ارناط انتصاراته المحدودة على القوافل العابرة في الصحراء ، لجملته يفكر بامور لم تخطر لغيره على بال ، لما فيها من خطر ايقاظ نعمة العالم الاسلامي كله ، ودفع المجاهدين الى التدفق على ميدان المعركة للقضاء على الخطر المهدد لمقدساتهم .

ويقول المؤرخون ان ارناط ، قد بلغ تيماء في عام 1181 م ، في احدى اتدفاعاته في الصحراء ، وتيماء تقع في قلب الجزيرة العربية ، وانه كان ينوي التوجه من هناك الى المدينة المنورة لمبايعتها ، والامتداد على قبر النبي عليه السلام ، ولكن هجوما قام به فروخ شاه على حصون ارناط في شرقي الاردن ، اضطره الى الارتداد مسرعا ، مخافة ان يباغته في الصحراء .

وقدر ارناط انه اذا تمكن من الاستيلاء على (ابلا) على خليج العقبة ، فانه يستطيع ان ينشئ اسطولا يسيطر على البحر الاحمر ، ويتحكم بموانئ المسلمين فيه ، وبالتالي فانه يستطيع الوصول الى الاماكن الاسلامية المقدسة في مكة والمدينة ، والايقاع بالمسلمين وهم في موسم الحج .

وبالفعل نفذ المقامر مخططه ، فانشا قوارب في مستقلان والكرك ، ونقل اجزاءها مفككة على ظهور الجمال فجمعها في خليج العقبة ، وقذف بمراكبه في البحر ، وبينما اتجهت قوة صليبية تحاصر ابلا ، اتجهت المراكب الاخرى عبر خليج العقبة الى البحر الاحمر ، ومن هناك سارت الى الموانئ الاسلامية الآمنة التي لم تكن تتوقع ان ترى مراكب صليبية ، فاخذت في نهبها ، والاعتداء عليها ، كما تعرضت

للمراكب الاسلامية الماخرة في البحر الاحمر ، فاوقعت بها ، ونهبت العديد منها . وكان اول ميناء ظهر الفرنج امامه هو ميناء (عذاب) ، تجاه ميناء جدة ، ثم انتقل الفرنج الى الموانئ الحجازية يفرون عليها ، حتى بلغوا ميناء الحديدية قرب ينبع ، ومنه اتجهوا الى رايع شمالي جدة ، ينهبون ويقتلون ويأسرون ، ثم ارسوا مراكبهم في الجوراء قرب رايع ، ونزلوا الى البر يعيشون فيما حولها ، ويعدون عدتهم للايغال في داخل الارض المقدسة والوصول الى مكة ، للايقاع بالحجاج المجتمعين فيها .

وللق العالم الاسلامي لهذه الجزاة التي لم يكن
احد يتوقعها ، واضطربت نفوس الحكام ، وجاشت نفوس المسلمين بالغضب ، كيف تجرؤ شرادم طارئة على مشرقنا المتسامح ، فتفكر في تدنيس المقدسات وترويع الامنين اللاتدين بيت الله وحرمة .

وكان اسرع الجميع استجابة لنداء الواجب هو
الملك العادل ، شقيق صلاح الدين ونائبه في مصر ، فجهز اسطولا عهد بقيادته الى امير البحر حسام الدين لؤلؤ ، وكلفه بملاحقة الفرنج وردهم من مقدسات الاسلام . فخرج لؤلؤ مسرعا ، يتبع الفرنج ، ويستقصي اخبارهم ، فادركهم وقد نزلوا بالحروراء ، فاستولى على مراكبهم الراسية ، ثم نزل ورجاله الى اليابسة ، لقتال الفرنج الهابطين على الساحل . ولما راي الفرنج فرق سفنهم وقومها في ايدي المسلمين ، انقطع املهم في النجاة بها ، فلجأوا الى شعاب الجبال القريبة من الساحل ، فلحق بهم لؤلؤ وقتلهم في شباط (فبراير) 1183 م ، قتالا شديدا حتى افناهم ، واخذ من تبقى منهم حيا اسيرا . فأرسل بعضهم الى منى لينحروا فيها كالاضحى يوم عيد الاضحى ، امام الحجاج ، لتطمئن خواطر الناس ، وليعلموا ان قادة المسلمين لا يمكن ان يتهاونوا مع من يدنس مقدسات الاسلام ، فنحروا هناك يوم العيد ، والناس من حولهم يهللون ويكسرون .

اما الباقون من الاسرى ، فقد سيقوا الى مصر ، فامر صلاح الدين بضرب اعناقهم جميعا لكيلا يفكر احد منهم في العودة مع حملات اخرى على الطريق .

لم يكن صلاح الدين يجهل اهمية الخطر الذي يشكله على الاسلام عامة وعلى مملكته بصورة خاصة ، وجود الصليبيين في سوريا ، وخصوصا وجودهم في شرقي الاردن وجنوبي فلسطين . ولكن هذا الوجود

كان قبل صلاح الدين ، وكان من الممكن ان يستمر ، دون ان يشعر صلاح الدين بان اقتلاهم ضرورة ملحة لا يمكن تأجيلها . ولكن مغامرات ارناط في نقض الهدنة وسلب الحجاج والقوافل ، وقطع الطريق بين سوريا ومصر والحجاز ، ومحاولاته لتدنيس مقدسات المسلمين ، وترويع اهل الارض المقدسة ، ومن يؤمها من الحجاج المسلمين ، كل ذلك اقنع صلاح الدين ، انه لا بد من القضاء نهائيا على هذا الخطر المهدد ، في اسرع وقت ، واجتثاله من جذوره ، لكيلا تبقى له في ارضنا باقية . فشرع من ساعد الجد ، واقسم على انه سينتقم بنفسه من ارناط ، وانه سيقنتله بيديه ان ظفر به ، وقد مكته الله من ذلك .

وتتالت حملات صلاح الدين على قلاع ارناط ، خلال الايام التالية ، وحاصره اكثر من مرة في قلعة الكرك وضيق عليه ، فكانت الجيوش الصليبية تتجمع في كل مرة ، وتسير لنجدة الكرك ، ولكنها كانت ترفض الدخول في المعركة مع المسلمين ، لانها كانت تدرك انها ليست كفء لصلاح الدين وجيشه .



وحينما حل عام 1187 م ، (583 هـ) ، اهتزم صلاح الدين الدخول في معركة فاصلة مع الفرنج ، فصرف همه لتسوية خلافاته مع اتباعه وجيرانه المسلمين ، كما طلب الى نائبه في حلب وحماه ، بمهادنة الفرنج في امارة انطاكية ، (اما طرابلس فكان اميرها قد دخل منذ زمن بعيد في حمي صلاح الدين وهادنه) . ولما تحقق الصلح بين المسلمين وبين فرنج انطاكية في ايار (مايو) 1187 م ، (اواخر ربيع الاول 583 هـ) . اخذ السلطان في جمع القوات ، واستدعى تابعيه من الامراء في الجزيرة وديار بكر والموصل ، واستدعى قوات من مصر وحلب وحمص وحماه ، وخرج هو من دمشق الى مشترا (في حوران) ، واقام هناك ينتظر اجتماع الجيوش عليه . ولما تكامل اجتماعها ، استمرضها في منتصف ربيع الآخر 583 هـ ، وعباها بمعية القتال ، وسار بها يوم الجمعة في 17 ربيع الآخر ، حتى نزل جنوبي بحيرة طبرية عند قرية الصنبرة .

وكان الفرنج قد علموا باجتماع الجيوش على صلاح الدين ، فاسرعوا بجمع قواتهم ، ومسكروا قرب ميون صفورية ، في الجليل ، ينتظرون التعرف على مرامي خطة صلاح الدين .

وفي اليوم التالي سار صلاح الدين ونزل على جبل غربي طبرية ، ولبث هناك ينتظر تعرف الفرنج ليقاثلهم ، ولكن الفرنج كانوا مختلفين فيما بينهم حول ما يجب عمله تجاه صلاح الدين . فقد مات الملك بودوان الرابع غير مخلف عقباً ، واوصى بالملك الى ابنة اخت له ، تزوجها رجل ضعيف الشخصية ، عرف باسم (جي دولوزينيان) فاصبح ملكا على القدس ، وقد احدث ارتقاء (جي) العرش انشقاقا في صفوف الصليبيين ، يضاف الى الفوضى القائمة بينهم .

ولما اجتمع الفرنج في صفورية ، ونزل صلاح الدين على طبرية ، اقترح المغامرون مهاجمة صلاح الدين لفك الحصار الذي ضربه على مدينة طبرية ، وكانت طبرية ملكا لروجة ريموند الثالث امير طرابلس ، وكان ريموند اكثر الصليبيين خبرة بالحرب ، وابعدهم نظرا ، واكثرهم ادراكا للواقع الصليبي ، وتقديرا لقوة صلاح الدين ، فكان رايه ان لا يخطر الفرنج المتفسخون بالاشتباك بالمسلمين ، وهم اكثر ما يكونون قوة ، وتصميما على سحق العدوان ، والانتقام من محاولة تدنيس مقدساتهم . لذلك اعترض على راي القائلين بضرورة الاشتباك بصلاح الدين ، وقال لهم ان طبرية ملك لزوجته ، وان زوجته وابناؤها موجودون في طبرية ، وانه اذا احدث مكروه لطبريا فان المكروه سيصيبه قبل غيره ، ومع ذلك فانه يفضل ان يضحي بزوجته وابناؤه وبعض املاكه ، على ان يقامر بمستقبل الممالك الصليبيين في المشرق ، فسخر منه المغامرون ، واتهموه بالخيانة والتواطؤ مع المسلمين ، وتطاولوا عليه ، ولما اقنعوا الملك بضرورة السير الى طبريا لفك الحصار ، وترحيل المسلمين منها ، لانه ليس من الشهامة ولا الرجولة في شيء ترك الاميرة لمصيرها تدافع وحدها من طبرية .

جرت تلك المناقشات في المعسكر الصليبي في صفورية ، قبل ان يتحركوا من مواقعهم . ولما راي صلاح الدين الفرنج لا يتحركون ، ترك قوة في المرتفعات ، لمواجهة الفرنج ان تحركوا ، ونزل مسرعا مع قوة خفيفة الحركة ، فهاجم طبرية واستولى عليها سريعا ، واسر وقتل وفغنم ، ولجأت الاميرة ومن نجا من المعركة ، الى القلعة يتابعون المقاومة ، فضرب صلاح الدين حصارا حول القلعة ، ولبث ينتظر رد فعل الصليبيين في صفورية .

ولما علم الفرنج بما حل بطبرية ، ارتفعت اصوات المتطرفين ، واقنعوا الملك بضرورة السير لانتقاذ

الاميرة ، فتحرك المعسكر الصليبي كله ، نحو المسلمين رغم معارضة ريموند واحتجاجاته .

ولما علم المسلمون بتحرك الفرنج أرسلوا يخبرون صلاح الدين ، وكان هذا بالضبط ما قصده هو من مهاجمة طبرية ، وهو ان يستثيرهم ، وان يدفعهم الى قبول الدخول في المعركة معه . فترك قوة من رجاله في طبرية تتابع حصار قلعتها ، واسرع هو بمن معه الى المرتفع ، حيث ترك معسكره ، فوصله مساء الخميس في 22 ربيع الاخر . وبعد قليل وصل الصليبيون ، واقاموا معسكرهم تجاه المسلمين ، ولم يجر قتال في ذلك اليوم .

وفي صبيحة يوم الجمعة 23 ربيع الاخر 583 هـ (تموز 1187 م) ، اشتبك الفريقان في قتال عنيف في ارض اللوية ، دام طوال النهار ، وكان الحر شديدا ، ولم يكن حول المعسكر الصليبي ماء يصابون اليه ، وحاولت قواتهم اكثر من مرة ان تشق طريقها الى طبرية لتستقي ، ولكن المسلمين كانوا يردونها ، بعد ان ادرکوا غايتها .

وبات الفرنج عطاشا ، والمسلمون من حولهم يطوفون بمعسكرهم ، يرمونهم بالنبال طوال الليل ، حتى لم يتركوا لهم فرصة للراحة .

وذكر الجانبان يوم السبت الى القتال ، والفرنج قد انهكهم التعب والعطش والحر ، وجرى عراك رهيب ، وصبر الفريقان صبورا عجيبا ، وراى ريموند ان المعركة اصبحت خاسرة ، وانه لم يعد لهم امل في نصر ، فحمل بمن معه من الفرسان حملة مستقتل يريد النجاة ، فامر قائد الفرسان تقي الدين عمر ، رجاله بان يفسحوا لهم المجال ، فخرجوا من المعركة ، وتابعوا طريقهم الى صور . فاضعف خروج قوات طرابلس ، من عزائم المقاتلين ، وحاولت فئة اخرى منهم النجاة ، فلاحقهم المسلمون وابدوهم .

اما الملك (جي) ومن تبقى معه ، فانهم لم يجدوا لهم مهربا ، فانحازوا الى تل حطين ، وتحصنوا فيه ، فاحاط بهم المسلمون ، وتجدد القتال على اشد ما يكون صنفا حول التل . واستمر حتى تمكن المسلمون من الوصول الى خيمة الملك فاخذوه اسيرا ، واسرع ارنات يلقى بسلاحه مستائرا ، وفعل غيره مثل فعله . وانتهت المعركة مساء السبت باسر الملك واسر ارنات

الذي اثارت مغامراته الحرب ، وفيره من الزعماء والقادة .

ولما انتهى القتال ، جلس السلطان المنتصر ، في خيمته فرحا مسرورا ، بما افاء الله عليه من نصر ، وجلس من حوله كبار القادة والامراء ، واستدعى اليه الاسرى ، فاحضر الملك وارنات ، وقد هدهما العطش ، فامر صلاح الدين للملك بشربة من ماء مثلج فتناول الكوب وشرب منها ، ثم ناولها لارنات ، وكان بجانبه ، فشرب ارنات وصاح صلاح الدين في الترجمان ليقول للملك الاسير ، انت الذي سقى ارنات وليس انا . وكانت الاعراف تقضي بان الاسير اذا نال من طعام آسره ، او من شرابه لم يعد يجوز له قتله . وقد سبق لصلاح الدين ان اقسم بانه اذا ظفر بارنات ليقنتله بيديه ، وقد تسبب ارنات بمغامراته وجرائمه ، وخياناته لليهود والموائيق ، بهذه الحرب الطويلة المتواصلة ، ولم يعر صلاح الدين على الاستمرار في الحرب الا ليظفر بارنات ، ليجمله عبرة لكل غادر مفامر .

ولم يشأ صلاح الدين ان يقتل ارنات بحضور (جي) ، فاخرجهما من مجلسه ، ثم استدعى ارنات ، ومنعه على محاولاته تدنيس المقدسات الاسلامية ، وذكره بما كان منه نحو رجال القافلة الذين غدر بهم في وقت الهدنة والسلم ، وسخر منهم ومن دينهم ونبيلهم ، حينما ناشدوه الله ، وذكره بالصلح القائم بين المسلمين والفرنج . ثم قام اليه صلاح الدين ، وقال له ها انا انتصر لدين محمد ، واستل سيفه وضربه به على كتفه فحله ، وقام من حضر بالاجهاز على ارنات ، ثم حملوه الى باب الخيمة والقوة ، ولما راى (جي) صاحبه قتيلا جزع ، وخاف مثل مصيره فاستحضره صلاح الدين ، وطيب قلبه وهذا روعه وقال له : (لم تجر عادة الملوك ان يقتلوا الملوك ، واما هذا فانه تجاور حده ، فجرى ما جرى) .

واثر معركة حطين بدات تنهاى المدن والقلاع التي كانت للصليبيين ، في ايدي صلاح الدين ، وتابع من خلفوه خطته في العمل على اجثثات جذور الدخلاء ، حتى تمكنوا بعد قرابة مائة وعشر سنين ، من يوم حطين ، من القاء آخر الصليبيين في البحر . ولم تستطع النجذات الكثيرة التي تلقاها الصليبيون من اوربا من ان تمنع زوال كياناتهم ، الذي قام في غفلة من الدهر ، بالعدوان والقهر والغدر .